الفقه المالكي في مـــدرسة بجايـــة
خلال القرنين السابع والثامن الهجريين
(القسم الأول)

أ. حفيظة بلميهوب*

أولا: نبذة موجزة عن بجاية والمذهب السائد بها في القرن الســـابع والثامن الهجريين.

نبذة عن بجاية وتاريخها : بجاية مدينة قديمة العهد، كانـــت أولا بيـــد القرطاجنيين ثم استولى عليها الرومان. ويذكر أن المكان الذي تقع فيـــه بجاية كان موقعا لمدينة أسّسها الفينيقيون تعرف بـــ"صلدة" ثم انتقلت إلى الرومانيين وعرفت باسم "صلداي" ثم خربت بعد ذلك و لم يعرف تاريخ اندثارها[1] لكن الثابت أنها من أهم مدن نوميديا[2].

* أستاذة مكلفة بالدروس في كلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر.

1. دائرة المعارف الإسلامية (350/3)، مادة بجاية مقال ليفي بروفنسال نقلها إلى العربية ثابت أفندي وأحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس (1352ه-/1933م). دائرة المعارف، للمعلم بطرس البستاني:5-198. مطبعة المعارف بيروت،1881م.

2. نوميديا بلاد قديمة في إفريقيا الشمالية بين قرطاجنة والمغرب وهي مملكة مزدهرة، ساعدت روما في حروبها ضدّ قرطاجة كانت عاصمتها سيرتا. وأشهر ملوكها (ماسينيسا) الذي استطاع أن يوحد بلاد نوميديا تحت سلطانه وأن ينشئ في بضع سنين ملكًا يشمل جميع قبائل البربر إلاّ أن هذه المملكة لم تعمّر طويلا إذ اختفت عام 46 ق.م وأصبحت نوميديا الشرقية ولاية رومانية، وأعيد إنشاء هذه المملكة بعد ذلك بسنوات في ظل حماية رومية (انظر، دائرة المعارف الإسلامية مادة البربر مقال باسييه، 502/3).

وقد كانت بجاية على عهد الناصر بن علناس[1] على شكل قرية صغيرة مغمورة تسكنها قبيلة تسمّى "بجاية"[2] أو "بوجي"[3] فبناها الناصر سنة 460 هـ، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون "في سنة ستين افتتح جبل بجاية وكان له قبيل من البربر يسمون بهذا الاسم.. فلمّا افتتح هذا الجبل اختط به المدينة وسمّاها الناصرية، وتسمّى عند الناس باسم "القبيلة" وهي بجاية"[4].

يرجع بناء بجاية إلى مجموعة من العوامل نذكر منها:

– موقعة سبيبة – غربي القيروان – التي هزم فيها الناصر بن علناس الحمادي سنة: 457هـ /1065م أمام الهلاليين[5] فتبعه الهلاليون واقتحموا مدينة "قسنطينة" واستولوا عليها وعلى القلعة والمسيلة والطبنة وعاثوا في البلاد نهبًا وسلبًا وفسادًا.

خراب القلعة الذي كان من الأسباب الباعثة على التفكير في بناء عاصمة جديدة.

---

1. الناصر بن علناس هو رابع أمراء بني حماد وهو أشهر ملوكها شأنا وأعلاهم كعبا وأثبتهم قدمًا في الملك بنى بجاية وسمّاها الناصرية، وأقام بها قصورًا شامخة. قال ابن خلدون: (وفي أيام الناصر اعتز آل حماد وعظم شأن أيامهم فبنى المباني العجيبة وشيّد المدائن العظيمة. توفي سنة 481 ه:1088م): ترجمته ابن خلدون. العبر:6/173_ 174. وعبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام.1/368-373).

2. ابن خلدون:العبر،6/174. وعبد الحليم عويس:دولة بني حماد،106. وعبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام:1/368-373.

3. بوجي : معناها الشمعة.

4. ابن خلدون: العبر،6 /174. عبد الحليم عويس: دولة بني حماد،106. عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام،1/ 369-370.

5. الهلاليون: عرب يرجع نسبهم إلى أصول أربعة: بني هلال، بني سليم، زغبة، رياح. وكانت مواطنهم الأصلية بالحجاز غربي نجد حول مكة والمدينة وبسائط الطائف إلى جبل زغوان، وبأرض تيماء من نجد والبحرين واليمن وانتقلوا إلى مصر أيام ولاية عبيد الله بن الحبحاب عليها. ولما أضروا بالديار المصرية وأصبحوا خطرا على الدولة فتح لهم الخليفة باب الهجرة إلى المغرب ورغبهم فيه، فانتقلوا إلى المغرب سنة:442هـ فسكنوه وتفرعت عنهم فروع كثيرة وبطون عديدة. بأنحاء الشمال الإفريقي. (انظر: عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام،1/342-345).

– المركز الطبيعي الجميل[1] الذي تتمتّع به بجاية وموقعها الجغرافي الحربي المنيع، فبجاية على شكل مثلث قاعدته الميناء أو البحر الّذي تقع على ساحله حيث تقوم كفاصل من الفواصل الكثيرة بين تونس والمغرب[2] ولمّا تمّ بناؤها أطلق عليها الناصر اسمه فأصبح اسمها "الناصرية"[3].

عرفت بجاية خلال هذه الفترة من تاريخ الدولة الحمادية مرحلة من التحضر والهدوء والانفتاح، حيث اعتز آل حمّاد أيام الناصر[4] وعظم شأن أيامهم، فبنى المباني العجيبة المؤنقة منها قصر اللؤلؤة الذي قال عنه ابن خلدون "إنه كان من أعجب قصور الدنيا"، الذي تغنّى به الشعراء الذين زاروا بجاية أو حطوا بها الترحال، ومن بين هؤلاء ابن حمديس الصقلي الذي أبدع في دقّة وصف قصر اللؤلؤة[5] في قصيدة طويلة.."[6]. كما يعتبر

---

1. إن موقع بجاية الطبيعي الجميل دفع بالشاعر الحسن بن الفكون للتغني بها في هذه الأبيات رغم ما في ذلك من مبالغة. قال :

دع العراق وبـغداد وشـامهمـا ... فالنـاصرية ما إن مثلها بلد
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمـع ... حيث المنى والغنى والعشية الرغد
يا طالبا وصفها إن كنت ذا نصف ... قل جنة الخلد فيها الأهل والولد

(انظرر: مقال محمد الشريف بن الشيخ: بجاية عبر التاريخ،1-2. ضمن محاضرات الملتقى الولائي الأول حول أعلام منطقة بجاية، 3-4. سبتمبر 1996م. إنجاز مارس1997م).

2. الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،259/1. والاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول ورقة، من مخطوط رقم 1560 وص21-22 من الكتاب المطبوع. دائرة المعارف الإسلامية، مادة بجاية،3: 350).

3. ابن خلدون: العبر،6 /174. عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام،371/1. مقال السيدة العالمة: نظرة على تاريخ بجاية. مجلة الأصالة:85،87. العدد 19 صفر ـ ربيع الأول 1394هـ:1974م.

4 . ابن خلدون: العبر،6 /357.

5. مقال محمد الشريف بن الشيخ: بجاية عبر التاريخ:2. (انظر: الملتقى الولائي الأول حول أعلام منطقة بجاية:3ـ4 سبتمبر 1996م إنجاز مارس1997م.

6. منها هذه الأبيات :

قصر لو أنّكَ قد كحلت بنوره ... أعمى لـعاد إلى المـقام بصيرا
ولـو أنّ بالإيوان قُوبل حسنُه ... مـا كـان شيئا عنده مذكورا
وإذا نظرت إلى غرائب سقفه ... أبصرت روضا في السماء نضيرا

عهد يحي الحمادي قمّة ما وصلت إليه بجاية من تطور حضاري، فعلى عهده وصل نفوذ دولة بجاية إلى القيروان وتونس[1]، كما أحدثت ببجاية السكة، فقد نقل ابن حماد (أي يحي) أن سكته[2] في الدينار كانت ثلاثة سطور ودائرة في كل وجه. فدائرة الوجه الواحد: ﴿**واتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَهِ ثُمَ تُوَفَّى كُلُ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾[3] والسطور: لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله، يعتصم بحبل الله يحي بن عبد العزيز بالله الأمير المنصور. ودائرة الوجه الآخر: بسم الله الرّحمن الرّحيم. ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة (543 هـ)[4].

والأمر الذي ساعد على إعطاء بجاية الأهمية الخاصة أنها كانت ملجأ الوافدين إليها من إفريقيا بعد خراب القيروان، وهزيمة المعز بن باديس أمام الهجمة الهلالية. ولم تتوقف هذه الحضارة عند الدولة الحمادية بل استمرت كذلك مع الدولة الموحدية التي قضت على كل القوى التي تحكم المغرب وتمكّنت من لمّ شعثه تحت قيادتها في مشارف النصف الثاني من القرن السادس الهجري والثاني عشر الميلادي وعن تملّك الموحدين لبجاية يقول ابن خلدون: ".. حتّى إذا زحف الموحدون إلى بجاية وفرّ القائد من الجزائر وأسلمها، قدّموا الحسن على أنفسهم، ولقي عبد المؤمن فأمّنهم وأخرج يحي بن عبد العزيز أخاه (سبع) للقاء الموحدين، فانهزم، وملك الموحدون بجاية"[5].

دام حكم الموحدين حوالي قرن من الزمن، ثمّ تلاشت دولة الموحدين بسبب الانقسام الذي جرى في صفوفها وتكالب كل من بني مريم وبني

---

1. عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام،7/2.
2. ابن خلدون: العبر،363/6.
3. سورة البقرة، الآية 281.
4. ابن خلدون: العبر،363/6.
5. ابن خلدون: العبر،363/6.

زيان على أراضيها، ونعزّز القول بما جاء في كتاب العبر "...دولة الموحدين لّما تقلّص ظلّها ثار بإفريقيا بنو أبي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا ملكًا لأعقابهم بنواحيها ثم لّما استفحل أمرهم واستولى على الغاية خرج على الممالك الغربية من أعقابهم الأمير أبو زكريا يحي ابن السلطان أبي إسحاق إبراهيم رابع خلفائهم واستحدث ملكًا ببجاية وقسنطينة"[1].

وكان من أبرز عوامل انهيار الدولة الموحدية ـــ ثورة ابن غانية[2] التي انطلقت من بجاية وهزيمتهم في معركة "لعقاب الأندلس" (سنة 609هـــ)[3]. فقامت على أنقاضها الدولة الحفصية على يد قطب من أقطاب الحركة الموحدية وهو: أبو محمّد عبد الواحد بن أبي حفص[4] فكان عهده عهد ازدهار وسخاء، وشكّلت بجاية آنذاك إحدى ولايات الدولة الحفصية إلاّ أنها تميّزت بشبه استقلال عنها.

المذهب الفقهي ببجاية في القرن السابع والثامن : إن المذهب السائد ببجاية في القرنين السابع والثامن الهجريين هو المذهب المالكي الذي أسّسه مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري (93هـــ / 179هـــ) ـ إمام دار الهجرة ـــ، فهو أشهر من أن نتناوله بالحديث وهو من قال فيه الشافعي:

---

1. ابن خلدون: العبر،363/6. عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام،9-8/2.

2. ابن غانية، هو علي بن إسحاق بن محمد بن غانية الميروقي، قدم من ميروقة في البحر إلى بجاية سنة:581هـ مع إخوته واثنين وثلاثين قطعة فنزلوا بجاية على حين غفلة من أهلها، ووالليها حينئذ هو: السيد أبو الربيع ابن عبد الله بن عبد المؤمن فاستولى عليها. (انظر: ابن خلدون: العبر،6: 390-400. الزركشي: تاريخ الدولتين،15-16. طبع:1966).

3. ابن خلدون: العبر،522/6.

4. هو أبو محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر بن يحي.. والشيخ أبو حفص من قبيلة هنتاتة من قبائل المصامدة وهو أحد العشرة الذين بايعوا المهدي بن تومرت. تولى الحكم سنة:603هـــ، كان عالما فاضلا، ذكيا فطنا، شجاعا، وهو الذي اخترع زمام التضييق بتونس للوفود، وكان يجلس يوم السبت للنظر في مسائل الناس. توفي سنة 618هـــ، وأيام دولته أربع عشرة سنة وثلاثة أشهر. انظر: ابن أبي دينار:المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس:153-154. الطبعة الثالثة. دار المسيرة بيروت.

إذا جاء الأثر فمالك النجم، وقال أيضًا: إذا ذكر العلماء فمالك الـــنجم. وقال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي من أثبت أصحاب الزهري؟ قال: مالـــك أثبت في كل شيء[1].

تأسّس المذهب المالكي على عدد من الأدلة حصرها بعضهم في ستة عشر، وقال بعضهم هي عشرون، وقيل: أكثر. ومن الأصول التي انفرد بها عن غيره من المذاهب: عمل أهل المدينة، والمصالح المرسلة[2] وسد الذرائع، التي عبّر عنها القرافي بقوله "الوسيلة إلى أفضل المقاصد هي أفضل الوسائل وإلى أقبح المقاصد هي أقبح الوسائل، والوسيلة إلى متوسط المقاصد هي متوسطة"[3].

انتشر المذهب المالكي في أنحاء العالم الإسلامي، فكانت المدينة كلّها على رأيه ومنها انتقل إلى أرض مصر وشاع فيها شيوعا كاملا على يد كل من ابن القاسم (ت:191هـــ) وابن وهب (ت:197هـــ) وأشهب (ت:204هـــ) وعبد الله بن عبد الحكم (ت:214هـــ) وأتباعهم إلى أن جاء الشافعي (ت:204هـــ).

---

1. القاضي عياض:ترتيب المدارك،110/1. السيوطي: تنوير الحوالك شرح موطأ مالك،3/1. أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية،383. مصطفى شلبي:أصول الفقه الإسلامي،300/1.
2. الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام،394/2.
3. القرافي:الفروق،22/2. مصطفى شلبي: أصول الفقه الإسلامي،300/1.

أما إفريقيا فقد حلّ فيها المذهب المالكي محل مذهب أبي حنيفة (ت:150هـ) على يد علي بن زياد[1] والبهلول بن راشد[2] وأسد بن الفرات[3] وسحنون من تلامذة ابن القاسم.

ولقي المذهب المالكي بالمغرب قبولا حسنًا، حيث عكف عليه العلماء درسًا مدارسة وتدريسا، عن المدرسة القيروانية قال ابن خلدون: وعكف أهل القيروان على المدونة وأهل الأندلس على الواضحة[4] والعتبية[5]. ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة في كتابه المسمّى بـ "المختصر"، ولخّصه

---

1. هو أبو الحسن علي بن زياد التونسي العبسي، ولي الله، ولد بطرابلس ثم انتقل إلى تونس فسكنها، سمع من مالك وسفيان الثوري والليث بن سعد وابن لهيعة، وسمع بإفريقيا قبل هذا من خالد بن أبي عمران وسمع منه البهلول بن راشد وسحنون وأسد ابن الفرات. (ر: القاضي عياض: ترتيب المدارك،326/1. ومحمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية،622/1. تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة. الطبعة الأولى،1985م، دار الغرب الإسلامي). وعلي بن زياد هو أول من أدخل الموطأ إلى المغرب، جاء في ترتيب المدارك: قال سعد بن يونس، هو أول من أدخل الموطأ وجامع سفيان إلى المغرب، وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه. (انظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك،326/1. طبعة مكتبة الحياة بيروت).

2. البهلول بن راشد: هو أبو عمرو البهلول بن راشد من أهل القيروان، كان ثقة مجتهدا ورعا، مستجاب الدعوة، سمع من مالك والثوري، وعنه سمع سحنون وعبد المتعالي وخالد بن يزيد وأبو سنان وغيرهم. قال البهلول بن عمر، ما رأيت أحدا= =أخشى لله من البهلول بن راشد. وقال سحنون: كنا نختلف عند البهلول نتعلم منه السمت)، توفي سنة:128هـ (ر: عياض: ترتيب المدارك،330/1. والوزير السراج،الحلل السندسية:697/1-706).

3. توفي سنة : 213 هـ .

4. الواضحة: كتاب لعبد الملك بن حبيب المتوفى سنة:238هـ. ألفه في الفقه والسنن وهو كتاب مهم وجليل كان عليه الاعتماد في الأندلس، فهو من أمهات الكتب الكبيرة القيمة في المذهب المالكي، لذا قيل إن أمهات الكتب في المذهب المالكي أربع: المدونة، الموازية، العتبية والواضحة). (ر: ابن فرحون: الديباج الديباج المذهب:154. وفؤاد سوزكين، تاريخ التراث العربي:148/3).

5. العتبية، كتاب منسوب إلى مؤلفه: أبي عبد الله محمد بن أحمد العتبي القرطبي الفقيه المالكي المتوفى سنة:255هـ/869م)، جمع فيه العتبي الأسمعة، سماع ابن القاسم ليحي بن يحي وسحنون، ومحمد بن خالد وغيرهم. جمع كل سماع في دفاتر وأجزاء على حدة ثم جعل لكل دفتر ترجمة يعرف بها.... وتسمى العتبية المستخرجة. هذبها كثير من العلماء منهم: أبو محمد بن أبي زيد القيرواني ولابن رشد عليها كتابه المشهور، البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل. (انظر: المدارك:145/2. الديباج:255. فؤاد سوزكين:تاريخ التراث العربي:155/3).

أبو سعيد البراذعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمّى بـــ"التهذيب" واعتمده المشيخة من أهل إفريقيا وأخذوا به وتركوا ما سواه، فكتب أهل إفريقيا على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن يونس واللّخمي وابن محرز[1] التونسي وابن بشير وأمثالهم، وكتب أهل الأندلس على العتبية ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد. وجمع ابن زيد ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر، فاشتمل على جميع أقوال المذهب، وفرع الأمهات كلّها في هذا الكتاب[2] واعتمد علماء بجاية[3] على منهج أهل الحجاز – المتمثل في الاعتماد على النقل تأسيًا بطريقة أهل المغرب والأندلس وإن كانوا قد طوّروا منهجهم بمزجه بالأسلوب العراقي في تفريع المسائل وإعمال الرأي والقياس، يقول المقري[4]: "وقد كان للقدماء في تدريس المدونة اصطلاحان: اصطلاح عراقي واصطلاح قروي، حيث جعل أهل العراق في مصطلحهم مسائل المدونة كالأساس وبنوا عليه فصول المذهب بالأدلة والقياس ولم يعرجوا على الكتاب بتصحيح الروايات ومناقشة الألفاظ ودأبهم القصد إلى إفراد المسائل وتحرير الدلائل على رسم الجدليين وأهل النظر من الأصوليين. وأما الاصطلاح القروي فهو البحث عن ألفاظ الكتاب، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب وتصحيح الروايات، وبيان وجوه الاحتمالات والتنبيه إلى ذلك من تتبع

---

1. أبو بكر بن أحمد بن عبد الرحمن: عرف بابن محرز، الشيخ الفقيه الحافظ المحدث المتقن اللغوي التاريخي، قرأ بالأندلس ولقي بها أفاضل، ثم ارتحل إلى بجاية بعد (640هـــ) فاستوطنها. روى عنه بها كثيرا. قال عنه القرافي: ذكر أن له تقييدا على التلقين صغير الحجم، كان رأس الجماعة الأندلسية، توفي ببجاية (سنة 655 هـــ). (انظر : الحلل السندسية:675/1).
2. ابن خلدون: المقدمة 449، والغبريني : عنوان الدراية.تحقيق رابح بونار:24.
3. لقد كانت بجاية تابعة لإفريقيا في سياستها واتجاهاتها العلمية. (انظر:الغبريني، عنوان الدراية:25).
4. المقري: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني. انظر أزهار الرياض في أخبار عياض:3/21-22. (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.1361هـ/1942م).

الآثار وترتيب أساليب الأخبار وضبط الحروف على حسب ما وقع في السماع، وافق ذلك عوامل الإعراب أو خالفها[1]. ولتوضيح الفروق بين المدرسة البجائية، والمدرسة العراقية، نذكر هذا المثال: مسألة السلس[2]: فالمغاربة بما فيهم البجائيون يرون أنه يجب الوضوء من السلس إذا كانت مفارقته أكثر من ملازمته كما هو ظاهر المدونة، وإلى هذا ذهب خليل. ففي المدونة: "فإن خرج من ذكره بول لم يتعمده، قال: عليه الوضوء لكل صلاة إلاّ أن يكون ذلك شيئًا قد استنكح"[3]، بينما ذهب العراقيون إلى عدم إيجاب الوضوء من السلس على الإطلاق وفي هذا يقول ابن الجلاب: "لا يجب الوضوء من سلس بول ولا مذي ولا ودي ولا من دم خارج من قُبُل أو دُبُر وذلك مهما كانت ملازمته، قياسًا على دم الحيض"[4].

فهذا مثال يبرز لنا التباين بين المدرستين البجائية والعراقية في استنباط الأحكام، فبينما يتوسع البغداديون في استعمال الرأي والقياس ويميلون إلى المعقول، نجد البجائيين يعطون الأولوية إلى المنقول، غير أن الاتصالات المستمرة بين المدرستين وتناقل الأفكار والآراء بين العلماء والفقهاء خفّف من حدّة الخلاف داخل المذهب.

فعلماء بجاية اعتمدوا في البداية على منهج أهل الحجاز والمتمثل في الاعتماد على النقل تأسيًا بطريقة أهل المغرب والأندلس، إلاّ أن البجائيين قد طوّروا منهجهم بمزجه بالأسلوب العراقي في تفريع المسائل وإعمال الرأي والقياس، ويعود ذلك إلى دخول كتاب أبي عمرو بن الحاجب إلى بجاية في أواخر المائة السابعة. هذا الكتاب الذي لخّص فيه ابن الحاجب

---

1. المرجع نفسه:22/3.
2. السلس من البول أو المذي أو الودي أو الغائط أو الريح، هو ما خرج بلا اختيار.
3. المدونة الكبرى:10/1. ط:1 مطبعة السعادة مصر.
4. ابن الجلاب،التفريع:196/1.

طرق[1] أهل المذهب في كل باب وعدّد أقوالهم في كل مسألة فجاء كالبرنامج للمذهب. يقول ابن خلدون في المقدمة: "فعكف عليه الكثير من طلبة المغرب وخصوصًا أهل بجاية لِمَا كان كبير مشيختهم أبو علي ناصر الدِّين الزواوي هو الذي جلبه إلى المغرب، فإنه كان يقرأه على أصحابه بمصر ونسخ مختصره ذلك، فجاء به وانتشر بقطر بجاية ومنها انتقل إلى سائر الأمصار..."، كما قام بشرحه جماعة من شيوخهم كابن عبد السلام[2] وابن راشد[3] وابن هارون[4]. ويشهد لهذا أيضًا أسماء الكتب التي كانت في بجاية خلال القرنين السابع والثامن الهجريين التي من بينها: كتاب التفريع لأبي القاسم بن الحسن بن الجلاب (ت: 378هـ) الذي

---

1. لقد كان للمذهب المالكي طرق ثلاث: طريقة القرويين وكبيرهم سحنون الذي أخذ عن ابن القاسم، والقرطبيون وكبيرهم ابن حبيب الذي أخذ عن طريق مطرف وابن الماجشون وأصبغ، والعراقيون وكبيرهم القاضي إسماعيل وأصحابه، وطريقة المصريين كانت تابعة للعراقيين وأهل المغرب والأندلس لم يكونوا يأخذون برأي العراقيين وذلك لبعد العراق عنهم لكن هذه الطرق امتزجت بعد ذلك. (انظر ابن خلدون، المقدمة:808-809).

2. ابن عبد السلام، أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الهواري التونسي قاضي الجماعة بها، الحافظ المتبحر في العلوم العقلية والنقلية، سمع أبا العباس البطرني، وأخذ ابن جماعة وعنه تخرج القاضي ابن حيدرة وابن عرفة والبلوي. له شرح على مختصر ابن الحاجب الفرعي، تولى التدريس والفتوى، توفي سنة:749هـ بالطاعون الجارف. انظر شجرة النور الزكية:210/1).

3. ابن راشد: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن راشد القفصي الإمام العلامة العمدة المحقق الفقيه الأصولي، أخذ من أئمة أهل المشرق والمغرب والكمال بن التنسي والقاضي ناصر الدين الأبياري المعروف بابن المنير والشهاب القرافي وعنه، ابن مرزوق الجد والشيخ عفيف الدين المصري، له تأليف منها: الشهاب الثاقب في شرح مختصر ابن الحاجب الفرعي. والمذهب في ضبط قواعد المذهب، والنظيم البديع في اختصار التفريع. توفي سنة:736هـ، وهو أول من شرح جامع الأمهات لابن الحاجب ثم جاء ابن عبد السلام والمفتي ابن هارون. (انظر، أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج:235. وابن مخلوف: شجرة النور الزكية:207/1).

4. ابن هارون: هو أبو عبد الله محمد بن هارون الكناني التونسي، الإمام في الفقه وأصوله وعلم الكلام، وصفه ابن عرفة: ببلوغ درجة الاجتهاد المذهبي، أخذ عنه جلة منهم ابن عرفة وابن مرزوق الجد، وخالد البلوي. من تأليفه شرح مختصر ابن الحاجب الأصلي، ومختصره الفرعي، وشرح المعالم الفقهية وشرح التهذيب ومختصره. ولد سنة:680 هـ، وتوفي سنة:750هـ (انظر: ابن مخلوف، شجرة النور الزكية:211/1).

اختصره ابن القنفذ القسنطيني في كتاب أسماه: "اللباب في اختصار الجلاب" وكتاب "التلقين" للقاضي عبد الوهاب البغدادي (ت:422هـ)[1].

وخلاصة القول: إن المدرسة البجائية اعتمدت في البداية على منهج أهل الحجاز ثم طوّرت هذا المنهج بمزجه بالأسلوب العراقي في تفريع المسائل وإعمال الرأي والقياس. وعلى الرغم من أنها كانت تابعة للمدرسة القيروانية وامتدادًا لها فإنها لا تقل أهمية عنها وعن غيرها من المدارس، فقد استطاعت بفضل جهود علمائها أن تخرِّج لنا علماء فطاحل في مختلف العلوم والفنون، كما كانت كعبة طلاب العلم، قصدها العلماء وطلاب العلم من مختلف البلدان، وخير شاهد على ذلك كتاب الغبريني الذي عدّد فيه العلماء الذين عرفوا في المائة السابعة ببجاية. لقد كان الفقه المالكي إذ ذاك هو دعامة الثقافة الإسلامية خصوصًا بالأندلس والمغرب العربي حيث كان الفقهاء قادة الفكر، إلاّ أن كثيرًا منهم استغلوا الظروف التي أطلق لهم فيها توجيهه وتوجيه الرأي العام فبالغوا وأسرفوا حتّى أدّى ذلك إلى انتقادهم ومن جملة منتقديهم آنذاك أبو بكر بن العربي الأندلسي الذي قال في كتابه "العواصم من القواصم": "لقد صار التقليد دينهم والاقتداء بغيتهم فكلّما جاء أحدهم بعلم حقروا أمره ودفعوا في صدره"...الخ.

ومن الذين أحدثوا ثورة ثقافية في ميدان المذهب المالكي العالم البجائي "ناصر الدين المشدالي" (631-731) شيخ ابن مرزوق الخطيب الذي استطاع أن يخفّف من وطأة الخلافات داخل صفوف الفقهاء، فقد أقام مدة في مصر، حيث نَقَلَ إلى بجاية ومنها إلى المغرب العربي الطريقة التي انتصر فيها أصحابها في ميدان الفقه المالكي.

---

1. انظر: الغبريني، عنوان الدراية:356.

هذه الطريقة التي انتهج فيها الفقه المالكي منهجًا جديدًا حيث أدخل في مقاييس الاختيار والترجيح مقياسًا جديدًا هو مقياس الفتوى والعمل. وقد اعتنى –أخيرًا– الشيخ محمد الفاضل بن عاشور –مفتي الجمهورية التونسية سابقًا– بهذا الموضوع فقال: "كان دارسوا الفقه إذ ذاك يطبِّقون الأحكام الشرعية على الوقائع بمراعاة فرضت فيه تلك الأحكام من الظروف الزمانية والمكانية فإذا رأوا أن بعض تلك الظروف تبدل مالوا إلى العدول عن القول المشهور إلى قول غيره اجتهادًا منهم واستحسانًا واعتبارًا للمصالح الشرعية. وهذا كلّه ناتج عن الطريقة الّتي أحدثها "مختصر" ابن الحاجب الفقهي الذي جمع ستًا وستين ألف مسألة وعظم به الإعجاب، وأقبل عليه دارسو الفقه، الذي قال فيه ابن خلدون إنه جاء كالبرنامج للمذهب.

لقد كان للمشدالي ناصر الدِّين الفضل في نشر مختصر ابن الحاجب الذي درسه على تلامذة ابن الحاجب ونشره بين تلاميذه ببجاية، ومن بجاية انتقل إلى عامة أقطار المغرب العربي[1].

ثانيا: أعلام المدرسة البجائية والكتب التي كانت تُدَرّس بها

1- لقد كانت الحركة الثقافية في القرنيين السابع والثامن الهجريين متقدمة حيث نبغ أعلام كثيرون في بجاية وتلمسان والجزائر وقسنطينة. وخير شاهد على ذلك كتاب "عنوان الدراية[2] في ذكر مَن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"، الذي ترجم فيه مؤلفه لخمسين ومائة

---

1. قال هذا الفاضل بن عاشور ومحمد الحجوي في كتابه: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي الذي قال: إن ناصر الدين المشدالي البجائي هو أول من أدخل مختصر ابن الحاجب الفقهي للمغرب ورغبهم إليه. راجع أيضا أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمقري.
2. الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الجزائر: 1970.

عالم، الذي كان من أنفس المصادر وأنفعها لتاريخ بجاية الثقافي، إذ لا يخلو تأليف من تآليف تراجم ذلك العهد من ذكره خصوصًا تاريخ تراجم علماء الأندلس[1].

كما سجّل العبدري[2] في رحلته بعض ملامح الحركة العلمية ببجاية فقال: "إن مدينة بجاية مبدأ الإتقان والنهاية وهي مدينة كبيرة حصينة منيعة شهيرة وهذا البلد بقية قواعد الإسلام ومحل جلّة من العلماء الأعلام.. ولأهله حسن الخلق والأخلاق.."[3]. وكان هذا الازدهار نتيجة حكام الدولة الحفصية الذين عرفوا بحب العلم والعلماء، فهذا الأمير أبو زكريا الذي كان مولعًا بالعلم والأدب، ازدهرت في عصره العلوم الإسلامية، خاصة بعد قدوم الأندلسيين إلى المغرب الأقصى وإفريقيا والمغرب الأوسط.

وقد ذكر المقري جماعة كبيرة ممّن هاجر إلى المغرب والمشرق فقال: "اعلم جعلني الله تعالى وإيّاك ممّن له للمذهب الحق انتحال، أن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلاّ علاّم الغيوب.. ولو أطلقنا عنان الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء العلماء الأعلام لطال الكتاب وكثر الكلام"[4].

---

1. المهدي البوعبدلي، مقال: الحياة الفكرية ببجاية في عهد الدولتين الحفصية والتركية وآثارها. صورته من مجلة الأصالة صفحة، 138 (إلا أنه فاتني تقييد تاريخ صدور المجلة).
2. العبدري: نسبة إلى عبد الدار بن قصي بن كلاب وهو من أهل القرن السابع، كان أسلافه يقطنون بلاد حاحة القبيلة البربرية المحيطة بمدينة الصويرة (انظر: رحلة العبدري، ص.خ. الكتاني، فهرس الفهارس:192/2).
3. رحلة العبدري: المسماة الرحلة المغربية. تحقيق محمد الفاسي (رئيس جامعة فاس)،26 -27. (وقد بدأ العبدري رحلته في:25 من ذي القعدة،688 هـ/10 ديسمبر1289م.
4. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. للشيخ أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت:1041هـ) مج 2: 5. تحقيق د. إحسان عباس. دار بيروت،1388هـ/1968م.

ومن هؤلاء العلماء :

1. أبو العباس أحمد بن خالد المالقي[1] (المتوفى سنة 666 هـ).
2. أبو بكر محمد بن أحمد بن سيّد الناس[2] اليعمري الإشبيلي المحدث الحافظ (المتوفى سنة 659 هـ).
3. أبو بكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سلمان بن محمد الزهري ويعرف بابن محرز البلنسي (المتوفى سنة655هـ) ببجاية.
4. ابن الآبار[3]: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر القضاعي الشهير بابن الآبار (595 هـ / 658 هـ)، قال عنه ابن خلدون "علاّمة في الحديث ولسان العرب وبليغٌ في الترسل والشعر"، من مؤلفاته "التكملة لكتاب الصلة" و"الحلّة السيراء في أشعار الأمراء".

فهذه أسماء بعض الأندلسيين الذين استفاد من ثقافتهم وعلمهم الأفارقة.

ومن العلماء الأفارقة الذين عاصروا هذه الجالية نجد:

1. ابن العباس الليباني (600هـ – 659هـ / 1203م – 1260م).
2. الأديب ابن ميمون القلعي (ت673هـ / 1274م)[4].

---

1. المالقي من أهل مالقة قرأ بالأندلس وقرأ بمراكش ثم قدم بجاية فجلس للإقراء بها (انظر: ترجمته بعنوان الدراية:73).
2. انظر ترجمته، بعنوان الدراية:283. (تحقيق عادل نويهض).
3. انظر ترجمته، ابن الآبار التكملة لكتاب الصلة، ص1. الغبريني: عنوان الدراية،309. (تحقيق عادل نويهض).
4. ابن ميمون القلعي: هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن علي بن ميمون التميمي القلعي، انتقل إلى بجاية واستوطنها، ولقي بها مشايخ منهم: الحسن الحوالي، وأبو بكر بن محرز، كان بارعا في علم العربية محكما لفنونها – النحو والصرف – كان كثير التلاميذ والأصحاب. (لترجمته،انظر: الغبريني، عنوان الدراية،67).

3. ابن ربيع البجائي[1] (ت675هـ / 1276م).

4. القاضي ابن زيتون (ت621هـ ـــ 689هـ / 1224م ـــ1292م).

فالتقت الثقافة المغربية بالثقافة الأندلسية المتمثلة في رجال المدرستين. إلاّ أن هذا العصر كما ذكره المقري لم يكن كسابقه، فالتعمق وإمعان النظر لم يكونَا كما كانَا في العصر المؤثر، لكن مع هذا التدني ظهر في هذا العصر ـــ أي القرن الثامن الهجري ـــ علماء فطاحل، منهم: ابن عرفة في العلوم الشرعية، ابن خلدون في التاريخ والفلسفة، المقري[2] الذي ارتقى إلى درجة تقعيد القواعد، الإمام عبد الرحمن الوغليسي المربي الزاهد الذي كان مدرسة خرّجت الكثير من العلماء والإمام الشاطبي صاحب الموافقات والاعتصام.

---

1. ابن ربيع البجائي: هو عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر أبو محمد الأنصاري البجائي، فقيه مالكي، صوفي من أهل بجاية، أصله من أبدة بالأندلس، وجدّه هو الواصل إلى بجاية مستوطنا. أخذ عنه الغبريني صاحب العنوان وأثنى عليه. (انظر ترجمته: الغبريني، عنوان الدراية،57. ابن قنفذ: الوفيات،333).

2. المقري: هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقري، وصفه تلميذه لسان الدين بن الخطيب بقوله: (هذا الرجل مشار إليه بالعدوة المغربية اجتهادا، ودؤوبا وحفاظا، وعناية وإصلاحا ونقلا ونزاهة، سليم الصدر، صادق القول..).

أخذ عن أبي عبد الله السلاوي وغيره وعنه أبو إسحاق الشاطبي ولسان الدين ابن الخطيب. نبغ المقري في علم الفقه كما أنه سَماَ إلى صعيد تقعيد القواعد الفقهية، وكان تأليفه فيها من أهم ما ألف: القواعد والضوابط، كما ألف في النظائر وفي الكليات، وأصل من القواعد الأصولية والفقهية ما قام به ربع كتابه: (عمل من طب لمن حب). ومن آثاره أيضا، الحقائق والرقائق في التصوف والقواعد والكليات في الفقه. توفي سنة: (759هـ). (انظر ترجمته: جذوة الاقتباس:298. برنامج المجاري:119. كتاب الإمام أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد.لأبي الأجفان:123-126).

كما ظهر في ذلك العصر أيضًا علماء ساهموا في الحفاظ على العلوم الشرعية بدراستها وتدريسها ومن هؤلاء العلماء :

1. أبو العباس الغبريني صاحب "عنوان الدراية" والمتوفى سنة:(ت704هـ/1304م).
2. ابن جماعة التونسي صاحب "البيوع" (ت712هـ / 1312م).
3. أبو محمد التجاني صاحب "الرحلة". (ت721هـ / 1321م).
4. أبو علي المشدالي (ت781هـ / 1330م).
5. ابن قنفذ القسنطيني (ت806هـ / 1406م).

يتبع...